

201396 - أصابه الشك في الإسلام بسبب اطلاعه على بعض الأحاديث التي ظاهرها متعارض

السؤال

أنا مسلم جزائري والحمد لله ، ولكن منذ مدة من الزمن بدأت أقرأ بعض الأمور حول الإسلام التي لم أكن أسمع بها من قبل ، وللأسف أصبحت تراودني الكثير من الشكوك والوسوس ، فبدأت أبحث عن وجوبه للكثير من التساؤلات التي التقيت بها ، والتي أصبحت أبحث عنها بنفسي في مختلف موقع الإنترن特 المعادية للإسلام ، وذلك لأنني أعتقد أنه لا بد من أن كل هاته الشبهات المثارة حول الإسلام ما هي إلا افتراءات ، وأن لكل منها رد وجواب ، حيث إنني أرى أن علماء الإسلام دائمًا ما يبينون التناقضات والافتراءات الموجودة في الديانات الأخرى الباطلة كالنصرانية واليهودية وغيرها ، بهدف تبيين أنه ليس هناك دين صحيح غير الإسلام . فكيف يكون فيه تناقضات هو الآخر ، ولديه أعداء يجمعون الشبهات حوله بالآلاف ، بنفس الطريقة التي يقوم بها المسلمون حول الديانات الأخرى الباطلة ، فأصبحت تراودني وساوس وشكوك في كل لحظة بأن كل الديانات الموجودة على الأرض مليئة بالتناقضات ، وإحدى التناقضات المذكورة في عنوان الرسالة هي كالتالي :

جاء في " صحيح البخاري " في كتاب " المغازي " ، باب حج أبي بكر الناس في سنة تسع : حدثني عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء رضي الله عنه قال : آخر سورة نزلت كاملاً براءة ، وآخر سورة نزلت خاتمة سورة النساء (يستفونك قل الله يفتكم في الكللة) .

وجاء في صحيح مسلم عن البراء (أنَّ آخَرَ سُورَةً أُنْزِلَتْ تَامَّةً سُورَةُ التُّوْبَةِ . وَأَنَّ آخَرَ آيَةً أُنْزِلَتْ آيَةُ الْكَلَالَةِ . وَفِي رَوَايَةٍ : بِمَثَلِهِ .
غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ : آخَرُ سُورَةٍ أُنْزِلَتْ كَامِلَةً)

أولاً نفهم من الحديثين - الموجودين في أصح كتب المسلمين بعد القرآن الكريم - أن سورة التوبة - وهي سورة براءة - أُنْزِلَتْ تَامَّةً وكاملاً ، وأنزلت في أواخر زمن الوحي . ثم نذهب إلى قول الله عز وجل (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَئِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) وهي الآية رقم 113 من سورة التوبة التي ثبت في الصحيحين كما سبق أن رأينا أنها مدنية ، أُنْزِلَتْ في أواخر زمن الوحي ، وأنها نزلت كـ تَامَّةً .

بعد ذلك نجد في الصحيحين أيضاً خبراً آخرًا يبين بوضوح أن هناك آية من سورة براءة نزلت عند موت أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، أي قبل الهجرة بثلاث سنوات :

" صحيح البخاري " ، كتاب " تفسير القرآن " ، سورة براءة ، باب قوله : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) حدثنا : إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا : عبد الرزاق ، أخبرنا : معمراً ، عن الزهري ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه قال : (لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنه أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (أي عم ! قل : لا إله إلا الله ، أ حاج لك بها عند الله) ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ! أترغب عن ملة عبد المطلب ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (لاستغفرن لك ما لم أنه عنك) ، فنزلت : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَئِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) .

فهذا الحديث الصحيح يبين بصرامة أن الآية/113 من سورة التوبة نزلت قبل الهجرة ، حيث إننا نعلم من الصحيح أن أبا طالب

مات في نفس العام الذي توفيت فيه زوجة النبي صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ولا داعي لذكر الروايات التي تؤكد ذلك . وأيضا هناك أحاديث صحيحة أخرى تبين أن آيات عديدة من سورة التوبة نزلت في أزمنة متباينة عن بعضها البعض، فبعض الآيات نزلت في غزوة تبوك... وأية نزلت عند موت المنافق عبد الله بن أبي ، وهي الآية/84 ، وأية أخرى نزلت يوم الجمعة عندما كان هناك ثلاثة رجال يتحاورون عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم في أمور اختلفوا فيها ، وهي الآية/19 . وغيرها من الروايات التي توحى بأن آيات سورة التوبة لم تنزل مع بعضها البعض وعلى الرغم من ذلك نجد في الصحيحين اللفظتين "تامة" و " كاملة " مما يبين بوضوح في لغة العرب أن السورة نزلت كاملة في أواخر الوحي .

هذا هو الإشكال الذي لم أجد له جوابا شافيا للأسف لحد الآن ، وللأسف الشديد هناك غيره من التناقضات والإشكالات الموجودة بكثرة ، والتي لا يسعني ذكرها كلها .

فأرجو من الله أن يوفقكم أن تساعدوني في محنتي فإن هاته الشكوك كادت أن تقتلني وترمي بي في ظلمات لا نور فيها .

الإجابة المفصلة

بداية لا بد من تقدير صراحتك في السؤال ، وإفضائك بما في نفسك من أمر تجده محل شبهة وشك ، وهكذا ينبغي على العاقل الحر ، البحث الدائم عن ما يشفي نفسه وقلبه من العلم والمعرفة ، ليتحقق الطمأنينة التي يسعى إليها .

ونحن هنا نجيئك بجواب واحد ، وفكرة مباشرة ، من غير إطالة ولا تفصيل ، ونجزم يقيناً أن هذه الفكرة تغيب عنك . ونضرب لك مثلاً يوضح الأمر فنقول :

رأيت الأزمة السورية المؤخرة - التي نسأل الله تعالى أن يعجل بالفرج فيها لصالح المسلمين المظلومين - هي أزمة حقيقة ، وكارثة كاملة بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، يشهد بذلك عشرات الآلاف من الشهداء والجرح والأسرى والمعتقلين ، وملابين المشردين اللاجئين ، والأخبار الواردة من هناك ، والمنقوله عبر جميع وسائل الاتصال المعاصرة ، والصور المشاهدة ، أصبحت معها الأزمة عين يقين بالنسبة للعالم كله ، ليس ثمة أدنى شك في وجودها على الأرض السورية .

ولكن الأخبار التي ترد من هناك يعتريها في كثير من الأحيان قدر من الاختلاف والاضطراب ، فترى مثلاً مراسلاً يخبر عن عدد شهداء يوم معين من أيام المعارك فيقول إنه بلغ الخمسين ، ومراسلاً آخر يزيد إلى السبعين ، وثالث ينقص إلى الثلاثين ، أيضاً ترى وسيلة إعلامية تخبر أن النصر في معركة معينة كان حليف الثوار ، ووسيلة أخرى تخبر عن نصر لكتائب النظام ، وثالث يحاول التوازن فيعبر بأن المعركة ما زالت طور الكروافر ، وهكذا مرت الأزمة بعاصفة من الأخبار غير الدقيقة ، والروايات التي يختلط فيها الحق والباطل . وهذا لا شك فيه أيضاً .

ولكن ، هل اختلاف الأخبار عن الأزمة السورية يعني أن نشك في وقوع الأزمة أصلاً ، فيدخل في قلوبنا الشك والشبهة في هذا الأمر ، وتبعثر في قلوبنا الخواطر بأنه لا يوجد في سوريا محنّة أصلًا ، ولا حرب ، ولا عناء !!

الآتري معنا أن من يدعى الشك في كل ما يحدث هناك ، فيقول : إنه لم يقتل أحد ، ولم يعتقل أحد ، وإن تلك البلاد تعيش في حياة رغد وسعادة ، وكل ما ينقل في وسائل الإعلام كذب وتزوير !

فهل من الممكن أن يقبل منطق العقل ، مثل ذلك التفكير ؟!

هل يقبل المنطق السليم ، أن يجعل من أخطاء الناقلين ، ذريعة لإنكار الحدث أصلًا ؛ وهو من العظم والخطر بمكان لا يخفى على ذي

عینین؟!

وَهُذَا مَثَلٌ جَمِيعِ الشَّبَهَاتِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْهَا فِي سُؤَالِكَ، سَوَاءً صَرَحْتَ بِهَا هُنَّا، أَمْ تَرَكْتَهَا اخْتَصَارًا، كُلُّهَا تَرْجَعُ إِلَى الْمَثَالِ الَّذِي ذَكَرْنَا هُنَّا.

إِنْ وَاجِبُ الْعَاقِلِ التَّفْتِيْشُ فِي سُبْلِ حَلِ الاضْطَرَابِ فِي الْأَخْبَارِ، وَالْتَّمْيِيزُ بَيْنَ مَنْ أَخْطَأَ مِنَ الْرَّوَاةِ، وَمَنْ أَصَابَ.

لفرض أن الروايات الواردة في الصحيحين أو في غيرهما ، وقع بينها كثير من الاختلاف والاضطراب ؛ فلماذا تجعل ذلك سبيلا للتشكيك في أصل الدين ، وأدلة اليقين ، بل يتتطور الأمر عند بعضهم إلى الشك في الله سبحانه وتعالى ، وفي إرساله الرسل ، وإنزاله الكتب ، وما أتي إلا بسبب زلة عقلية يسيرة ، ولكنها تؤثر تأثيرا بالغا في انحراف التفكير ، وملء القلب بالسواد والظلام .

الأمر يسير جدا ، روايات وأخبار كثيرة وقع بينها الاختلاف ، وامتلأت بها كتب الآثار والتاريخ ، فكان ماذا ؟ !! هل تريد حدثاً أعظم في التاريخ من حدث (الإسلام) يجمع تفاصيله وقضاياها العقائدية والتشريعية والتاريخية ، وما أدى إليه ببعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم من تغيير وجه البشرية ، وانتشار الإسلام ليصبح ثاني أكبر ديانة انتشارا ، ودولة الإسلام بسطت نفوذها لقرون متطاولة على معظم دول الأرض الحية في التاريخ ، كل هذا الحدث العظيم بجميع جزئياته يحتاج إلى عملية نقل حضاري وتاريخي هائلة ، تنقل أدنى خبر ينقل لنا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل الخلاء ، وأعظم خبر ينقل لنا كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلقى عن رب العزة جل وعلا الوحي ، كل هذا تزيد أن تلغيه لاختلاف وقع بين الرواية في بعض القضايا !

أليس من المنطقي أن تتعرض عملية النقل الحضاري الهائلة هذه لقدر من الاضطراب والاختلاف بالنقص والزيادة !! ولو قرأت تاريخ الحضارات كلها كالفرعونية والبابلية والرومانية وغيرها ، لعلمتكم هو الاختلاف الوارد في تفاصيل ذلك التاريخ ، ولكن أحداً على الإطلاق لم يقل إنني أشك في وجود أصل تلك الحضارات ، وما عرفت عنه من عظم ونفوذ . فلماذا نشك في أصل الدين ؟! ولماذا تقبل عقولنا هذه المزالق في التفكير بسرعة وعجلة ، وكأننا لا نملك شيئاً من أسباب التدقيق والتحري !!

هـب أن تلك الروايات الواردة في سؤالك كلها خطأ، أو مشكوك في صحتها، وحقها أن تذهب إلى كتب الأباطيل والأكاذيب، فأي شيء في ذلك يدعو إلى التشكيك في أصل الدين وفصله؟! وهـل قـامت صـحة الدين عـلـى مـثـل هـذـه الروـاـيـات، حتـى يـدل سـقوـطـها عـلـى هـدم الدين؟!

ونقول لك هنا أيضاً - لنحقق لقلبك الطمأنينة الأكبر - هل التناقض وقع فيه النبي صلى الله عليه وسلم هنا ، أم وقع بين الصحابة الذين نقلوا هذه الروايات ؟!

أعد قراءة الروايات في السؤال فستجده أنه لا ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم فيها . فلو قلنا لك - بكل يسر وسهولة - إن البراء بن عازب رضي الله عنه الذي قال : (إن سورة التوبة نزلت كاملة) أخطأ في قوله ذلك ، واجتهد فوهم في اجتهاده ، وأن الصواب مع الصحابة الآخرين الذين نقلوا تفرق نزول كثير من آيات سورة التوبة في كثير من المواقع ؛ فأي مشكلة بقيت أمامنا بعد ذلك ؟ وأي أصل من أصول الدين قد هدمنا بهذا الجواب ؟ وماذا يبقى من المشكلة بعد ذلك ؟

هذا مع أنه قد قال بعض العلماء إن كلمة (كاملة)، أو (تمام) تطلق في اللغة العربية ويراد بها المعظم والأكثر. كما يقول ابن حجر العسقلاني رحمه الله : " المراد بعضها أو معظمها ، وإنما في أيات كثيرة نزلت قبل سنة الوفاة النبوية ، وأوضح من ذلك أن أول براءة نزل عقب فتح مكة ، في سنة تسع عام حج أبي بكر. وقد نزل (اليوم أكملت لكم دينكم) وهي في المائدة في حجة الوداع سنة عشر . فالظاهر أن المراد معظمها ، ولا شك أن غالبيها نزل في غزوة تبوك ، وهي آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم " انتهى من "فتح الباري " (8/316).

والخلاصة :

أنا نخلص لك النصيحة هنا لوجه الله تعالى ، أن تعتنى بمعالي العلوم ومقاصدها الكلية ، وتوجل القراءات التفصيلية في الأمور التاريخية التي لا تبني ولا تهدم ، حتى تحقق العلم النافع وتطلع على كتب الإسلام وأركانه العظام ، وتوسيع مداركك بالتفق في العلوم الأخرى والكتب المفيدة في اللغة والتاريخ والحضارة والفكر والسياسة ، لترى المنهجية العلمية التي يفكر من خلالها المختصون ، وتبعد عن لغة التشكيك والاضطراب التي تبنيها ثقافة الإنترنت العامة. ولتعلم أن المستوى العلمي والثقافي للفرد لا يحدد من خلال اطلاعه على صفحات المنتديات وموقع الشيّهات ، ولكن من خلال قراءته للعلماء والمفكرين والمثقفين المشهورين ، وقبل ذلك كله بأعماله وأخلاقه ورسالته في مجتمعه ، لتكون رسالة بناء ودعوة وفضيلة ، وليس رسالة شكوك ووسوس يظنها شيّهات في نفسه ، لجهله وقصور اطلاعه .

نسأل الله لنا ولكل الهدية وال توفيق .

والله أعلم .